Dirassat & Abhath
The Arabic Journal of Human and Social Sciences

مجلة دراسات وأبحاث
المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية

EISSN: 2253-0363
ISSN : 1112-9751

أبو القاسم الزياني المغربي الرحالة والمؤرخ

من خلال رحلته الترجمانة الكبرى

Abou El Kacem Zayani

a Moroccan traveler and historian

عبدالقادر حليس Helis Abdelkader
جامعة زيان عاشور الجلفة
.aekhelis@yahoo

تاريخ الاستلام : 2019-12-04 **تاريخ القبول :** 2021-01-02

ملخص:

لقد اهتم المغاربة بأدب الرحلات لكونه مصدر معرفي تاريخي، هذا نتيجة عوامل مختلفة و متشابكة أهلت الرحلة بان تحمل في طياتها صورا عن واقع المشرق الإسلامي في جميع ميادينه ،و قد ارتقى أدب الرحلات ليصبح فنا أصيلا فارتقى إلى مستوى الإبداع و ازداد اتساعا و خصوبة في بلاد المغرب الإسلامي عند المغاربة و الأندلسيين لما عرف عنهم من رغبتهم في الأخذ عن الشيوخ وزيارة الأماكن المقدسة وجولاتهم من أجل الاطلاع و البحث، وانعكاس كل تلك المعارف في البلاد التي وصلوا إليها خلال سير رحلاتهم ، من هنا كان واجبا على الباحثين الاطلاع على كتب الرحالة لما لها من أهمية بالغة في رسم صورة عن الحياة بمختلف جوانبها على مدى العصور و الأزمنة ، للمشرق الاسلامي وخاصة في نقل طبيعة الحياة الفكرية التي انعكست صورتها في الرحلات

كلمات مفتاحية:الرحلة. الزياني.، الترجمانة. المغرب.،المشرق. الحجاز.، مكة. الاجازة.،

The Arabs in north Africa – Maghreb- has been interested with traveling around the world. They tried to benefit and learn from the precious knowledge of history and geography,they considered traveling as a valuable resource to the explorer. Many factors prove that the Maghreban were enriching their knowledge with travel; the description of the territories and provinces with the conduction, which are considered part of the news Islamic conquests. The Islamic Caliphate state’s large area has an important role in the study of its provinces nature to assist in the application of the provisions of the sharia and helping the work of the governors. The history of towns and provinces was considered as the earliest writing in Islamic history because it’s related with the Islamic conquests and geography. The travel literature rated to became original art , reaching to the highest level of creativity in Maghreb Arab and Andalusia by the writers there,who were known by their love to learn from sheikh and insisting to visit the holy places around the Islamic caliphate and their trips for research and learning. Find the knowledge and learning was a duty for Historians in the explorer’s books and writings. The explores books show complete image and precious information about the life where they traveled. Biography books,history and literature and the translation writing branch clearify the huge and perfect works of those explores and their trips

.Keywords: keyword; The Arabs in north Africa. Maghreb. History.

1.**مقدمة**:

تتصف الرحلات المغربية باتجاه المشرق العربي غالبا بالرحلات الحجازية، وهي تعتبر من المصادر الهامة في الكتابات التاريخية التي تعكس صورة واقع المشرق العربي، فهي تحمل في طياتها معلومات مختلفة، وتفاصيل دقيقة عن المشرق بصفة عامة والحجاز بصفة خاصة، لمكانة الحرمين الشريفين، باعتبار أن الحج كان المقصد الأساسي منها.

لذى كانت صورة الحجاز، باعتبارهفضاء دينياً مرتبطاً بأماكن القيام بالمناسك، جعل حضوره في نصوص الرحلات المغربية الحجازية، فهي من جهة مجال لأداء الشعائر الدينية المفروضة، وهي من جهة ثانية ملتقى العلماء من بقاع متفرقة، مما ساهم في ازدهار الحركة الثقافية والعلمية بالحجاز خاصة و المشرق عامة؛و استقطابها طلاب العلم من مناطق عديدة من العالم الإسلامي. ومما لا ريب فيه أن مكانتها الروحيةجعلتها على رأس المراكز التي تشد إليها الرحال عبادة وعلماً، ولذا فإن عدداً كبيراً من العلماء آثر المكوث فيها متخذاً منها مكاناً لمجاورة البيت العتيق والمدينة المنورة.

ويبدو أن أهمية الرحلات في كونها تمثل مظهراً من مظاهر الحضارة العربية الإسلامية. فتحت الآفاق المعرفية، واستقصت العادات البشرية، واحتضنت القوافل التجارية، ودونت فنون المجالس العلمية، واقتحمت الحدود السياسية، وطرقت أبواب الطرق الدينية الصوفية، ورسمت حدود الخرائط الجغرافية، لمختلف الأقطار الإسلامية.، كما انها حملت اسهامات الرحالة المغاربة في المشرق العربي، ومن بين تلك الرحلات رحلة أبو القاسم الزياني المغربي الموسومةبالترجمانة الكبرى.

1- أبو القاسم الزيانيالرحلة و المؤرخ

1-2 تعريف بصاحب الرحلة

هو أبو عبدالله محمد بلقاسم بن أحمد بن أبي الحسن بن علي بن إبراهيم الزياني نسبة إلى قبيلة زيان[1] إحدى المجموعات القبلية الكبرى التي كانت تنتشر بجبال الأطلس المتوسط جنوبي مدينة مكناس، كان جده علي بن إبراهيم يقطن أركوبأدخسان على مقربة من مدينة خنيفرة، وكان يحظى هناك بوجاهة كبيرة بين أبناء عشيرته، لما اشتهر به من مكارم الأخلاق و تضلع في العلوم[2].تَعَرَّفَ عليه السلطان مولاي إسماعيل و اصطحبه معه إلى مكناس، فعاش في كنفه لمدة أربعين سنة رفقة ابنه أحمد الذي زوجه السلطان بسيدة شريفة تدعى بنت العياط الحسيني هي أم أبي القاسم[3].

وما إن توفي السلطان المولى إسماعيل، وبعده الجد المذكور بأسبوع ، حتى انتقلت أسرته لسكنى مدينة فاس، وذلك عام 1727، وبعد الإقامة بها مدة ثمان سنوات، رزق بمولود فكان هو أبا القاسم[4].

فكانت فاس مسقط رأس أبي القاسم الزياني سنة 1147هـ / 1734م.وبها نشأ و تكون، وتزامن ذلك مع ظروف صعبة، كانت تمر بها المدينة جراء الأزمة التي عرفها المغرب عموما عقب وفاة السلطان إسماعيل و التي دامت ثلاثين سنة ، وقد تميزت هذه الازمة باحتدام الصراع بين بعض أبناء السلطان على الحكم[5].وفي هذه الظروف المضطربة، بدأ أبو القاسم الزيانيفي تلقي تعليمه الأولي في أحد الكتاتيب القرآنية لينشأ في حجر والده الذي علمه فقرأ القرآن و اشتغل بطلب العلم على شيوخه،فكان ممن تلقى على أيديهم العلم[6] :

- أحمد بن الطاهر الشرقي، أول شيوخه، وقد درس عليه الأجرومية و ابن عاشر في النحو، و السنوسية في العقائد.

- محمد بن الطيب القادري درس عليه رسالة أبن أبي زيد القيرواني في الفقه بجامع الأندلس.

- و عبدالقادر بو خريص درس عليه تشقيق ألفية ابن مالك في النحو و الرسالة و مختصر الخليل

في الفقه.

- محمد بن إبراهيم الدكالي، درس عليه مختصر خليل بمدرسة العطارين، وتشقيق الألفية بالقرروين.

- محمد التاودي بن سودة المري، شيخ الجماعة بفاس، درس عليه صحيح البخاري في الحديث،

والشفا في السنن[7].

- محمد بن الحسن بن مسعود بناني، خطيب الحرم الإدريسي، الذي أخذ عنه حاشيته على شرح

الزرقاني على مختصر خليل المسماة الفتح الرباني فيما ذهل عنه الزرقاني[8].

- عمر الفاسي أبو حفص ،الذي تلقى عنه مختصر خليل بجامع القرويين[9].

ولكن الزياني رغم تعدد مشائخه إلا أنه سقط من أعينهم و كذا رفاقه في طلب العلم بسبب اهتمامه بمباحث وفنون كان لها أثر كبير في ذهنية المجتمع المغربي آنذاك، وهي التي اصطلح عليها عند البعض باسم العلوم الخفية كالخط و الرمل، والجدول، والسيميا حتى اضطر إلى الانقطاع عن دروس شيخه أبي حفص الفاسي[10].

كما تلقى الزياني العلم عن غير شيوخ بلده ، فقد أتيحت له الفرصة في ذلك عندما قرر والده الهجرة من المغربوعزمه الاستقرار بالمدينة المنورة فرارا من الفتن التي غلا مرجلها به بعد وفاة السلطان إسماعيل بن الشريف العلوي وتنازع بنيه على الملك، فسافر مع أسرته إلى الحجاز عام 1163هـ ثم عادوا إلى مصر بقصد التجارة،ولماكانوا بها بلغهم خبر وفاة السلطان عبدالله بن إسماعيل عام 1171هـ ليعتلي العرش ابنه محمد الذي كان مشهورا بالحزم، محببا إلى الرعية و الجند، فبدا لهم أن يعودوا إلى المغرب فعادوا إليه عن طريق ايطاليا و فرنسا و البرتغال، وقد استفاد الزيانيمن بعض من العلوم بمصر، وفي الوقت نفسه استفاد من مظاهر النهضة الأوربية أثاء خط سير رحلة العودة[11].

واعتلى الزياني مناصب سياسية في الدولة العلوية منها[12]:

- كتابة للديوان لمدة نحو خمسة عشر سنة.
- ولايته على بعض المدن كالعرائش1179هـ/1765م، وسجلماسة 1198هـ/1784 وتازة 1201هـ/1788م، ووجدة 1206هـ/1791م، وتادلا1215هـ /1800م.
- القيام بدور الوساطة لإخماد بعض الفتن، كتدخله في تهدئة قبائل أيت أمالو الثائرة سنة 1186هـ/17772م.
- إسهامه في إخماد ثورة العبيد اين آزروا اليزيد سنة 1189هـ /1175م.
- وساطته في تهدئة الحسن بن إسماعيل وشيعته من قبائل أيت عطا الصحراوية سنة 1198هـ/1784م.
- ترؤسه بعثة سفارية إلى تركيا عام 1200هـ /1786م.

وليس من المبالغة أن نعتبر أبا القاسم الزياني من اكبر رجال الدولة بالمغرب في القرن الثالث عشر الهجري، فقد تقلد لمدة طويلة مناصب سامية من سفارة وحجابة و كتابة ووزارة تخللتها أسفار و نكبات ، و يعتبر أبو القاسم الزياني أهم مؤرخي العهد العلوي الذي عاش في ظله ازيد من مئة سنة وعاصر مؤسسيه الأولين، كما أنه حاز مناصب عليا بفضل سمعته واقتداره ومكانته العلمية.

أما عن أسلوبه في الكتابة فهو يشابه و يضارع تفكيره فقد جاء بسيطا تقرب لغته من اللهجة العامية، لكن كتبه على ما فيها من الهنات تعد مرجعا هاما من مراجع الجغرافية و التاريخ، ولاسيما تاريخ الأسرة العلوية[13].

-مؤلفاته[14]:

له مؤلفات كثيرة اختلفت مواضيعها لعل من أشهرها على سبيل الذكر لا الحصر:

- الترجمان المعرب عن دول المشرق و المغرب:وهو تاريخ عام يبتدئ من بدء الخليقة الى القرن الثالث عشرالهجري ،التاسع عشر ميلادي[15].
- البستان الظريف في دولة أولاد مولاي علي الشريف الروضة السليمانية في ملوك الدولة الإسماعيلية ومن تقدمها من الدول الإسلامية.
- أرجوزة في البدع المستحدثة في الإسلام بعنوان:الدرة السنية الفائقة في كشف مذاهب أهل البدع من الروافض والخوارج والمعتزلة والزنادقة.
- ارجوزة في وفيات ملوك المسلمين
- رسالة في نسب شرفاء المغرب عنوانها تحفة الحادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب.[16]
- رسالة سلوك فيما يجب على الملوك.
- رحلة الحذاق في مشاهدة البلدان والآفاق.
- فهرس بعنوان جوهرة التيجان.
- كشق الأسرار في الرد على أهل البدع الأشرار.
- نصيحة المغتربين في بطلان التدبير.
- الرحلة: الترجمانة الكبرى.
- حياة الأدباء والكتاب في مدح هذا الكتاب.

2-2 **وفاته[17]:**

تلك السنوات التي عاشها الزياني مقربا من الأعتاب السلطانية مستمتعا بالجاه وما يرتبط به من يسر ومجد، تلتها لحظات قاسية ومؤلمة تعرض فيها لإحدى أشد محناته التي

واجهها في حياته وألحقت به جرحا، ذلك أن اليزيد خلف السلطان محمد بن عبدالله و لم يكن ينظر له بعين الرضا ولم يغفر له وقفوه وتأييده للسلطان سليمان، وقد تجلت نكبة أبي القاسم الزيانيفي التنكيل به وتعرضه للضرب وإيداعه السجن، وظل يعاني من تلك النكبة إلى أن تولى الحكم السلطان سليمان الذي كان مدركا لمكانته و قدره فأمر بفك أسره و أطلقسراحه وقربه إليه و لم يلبث أن عينه عاملا على وجدة" وقد قبل المهمة على مضض وهو ما جعله يغير وجهته صوب تلمسان حيث اعتكف بقرية العباد بضريح أبي مدين ، ومن تلمسان توجه إلى فلسطين و الشام[18] ، وعاد إلى تلمسان عازما الاستقرار بها إلى ان تلقى من السلطان سليمان رسالة يحثه فيها على الرجوع للمغرب وإعفائه من المهام و المسؤوليات نزولا عند رغبته، وقد وافته المنية عن عمر ناهز المائة سنة بفاس في الرابع من شهر رجب عام 1249 هـ الموافق 17 نوفمبر 1833 ،ودفن في الزاوية الناصرية بحي السياج[19] .

3-2 الرحلة وقيمتها العلمية:

أ- مضمونها:

أخرج الزياني كتاب رحلته الترجمانة الكبرى في الثاني عشر من عام 1233 هـ 20يناير 1818.فقد جمع فيها أوصاف ما شاهده في رحلاته الثلاث من الأمصارو البحار، وأخبار من لقيه من العلماء وأصحاب الجاه، لذا يعبر كتاب رحلته فهرسة ورحلة ذات طابع جغرافي، فهي شبه موسوعة لأنها تضم معلومات متنوعة، ويكفي للدلالة على ذلك أن نذكر عنوان الرحلة كاملا و الموسومة بـ:الترجمانة الكبرى من الأمصار و المدن و القرى و القفار و البحاروالجبال و الأنهار، و العيون و المعادن والآبار و غير ذلك من عجائب خواص الحيوانات و الاحجار وما يؤيد ذلك من التفسير والآثار ونوازل الفقه وشواهد الاشعار[20]، فالترجمانة عبارة عن رحلتين حجازيتين إحداهما تمت سنة 1208هـ /1794 و الثانية سنة 1226هـ /1811م، إلى جانب رحلة ثالثة سابقة مع والده[21].

ب-مسار رحلته:بالنسبة لمسار رحتله الحجازية و سفارية فقد كانت بدايتها من المغربإلى اسطنبول فالحجاز، أما عن طريق العودة فقد كان من الحجازمرورا بالقدس إلى الشام ومصر ثم بلاد المغربتونس و الجزائر وموطنه الأصلي المغرب[22] وأثناء خط سيره كان الزياني يحمل معه كتاب رحلة البكري و يدون عليها خط سيره و يقارن [23].

4-2 القيمة العلمية للرحلة:

جمع الزياني في كتابه الترجمانة أوصاف ما شاهده في رحلاته الثلاث من الأمصار و البحار، وأخبار من لقيه من العلماء وذوي الجاه، لذا تمثل رحلته فهرسة إلى جانب اعتبارها رحلة ذات طابع جغرافي في نفس الوقت ، فهي أشبه بموسوعة لأنها تضم معلومات إضافية وجد متنوعة، ويكفي للدلالة على ذلك أنها شملت مواضيع متنوعة ومتفاوتة من حيث الإسهاب أو الإيجاز إلا أن مؤلفها لم يتبع في ترتيبها خطة محددة ولم يراع في بثها طريقة واضحة المعالم[24]

وفيما يخص تحرير فصول الترجمانة فقد كانت في ظروف مختلفة من حياة كاتبها السياسية و الفكرية، وخلال عدة سنوات فمواد الرحلة لا يتيسر جمعها و تدوينها بطريقة فورية وفي فترات زمنية متصلة الحلقات واذا كان هو نفسه أخبرنا أنه انتهى من تخريج كتابه الترجمانة سنة 1233هـ فإننا نلاحظ أنه ذكر فيهاأحداثا وقعت سنة 1234هـ بل سنة 1235هـ /1819 ـــ 1821م[25]،اي انه بعد الانتهاء من إخراج رحلته أضاف لها بخط يده معلومات هامشية.

ونذكر على سبيل الإنصاف أن ما زاد من قيمة كتابه الترجمانة أن مصادرها كانت متعددة، حيث اعتمد الزياني على الكثير من الكتب المشهورة في المسالك و الممالك وعلى عدد من الرحلات التي سبق للمغاربة تدوينها وتسجيلها ، في ضمن كتب الجغرافيا ، فقد أراد الزياني أن يكون كتبه هذا ضمن الرحلات الكبرى كرحلة بن بطوطة و أبي سالم العياشي، وتكون في نفس الوقت وصفا جغرافيا جامعا على منوال المسالك و الممالك، واعتقد الزياني وهو يختم كتاب الترجمانة أنه ربما فاق كل من سبقوه وجمع ما لم يجمعه هؤلاء لكنه في الواقع لم يكن يحمل من الزاد العلمي و الباع الادبي ما يسمح له ببلوغ الهدف المنشود

،إذ كان نصيبه من العلوم و اللغة محدودا ، وهذا ما لمس في أسلوبه في كتابة الترجمانة ،ولكنها رغم ذلك قدمت لما الترجمانة في طياتها بأنها كتاب رحلة حج ووصف للبلدان، ولكن كذلك رحلة سفارية يذكر فيها المهام التي كلفه بها السلطان محمد بن عبدالله إلى الدولة العثمانية،فهي من هذه الوجهة رحلة حجية وسفارية في نفس الوقت، كما تتضمن بالإضافة إلى ذلك إفادة بيوغرافية هامة من المؤلف نفسه ومعلومات مفيدة عن مسير حياته الشخصية و السياسية.

3-الخاتمة:

هذه نظرة عاجلة قدمناها حول كتاب الترجمانة الكبرى الذي مازال إلى الآن يحتاج إلى دراسات معمقة يقوم بها الباحثين حسب اختصاصاتهم وقدراتهم وبذلك ينيرون الطريق لمن يريد أن يتزود من ثقافتنا ويطلع على حضارتنا الخالدة، لذى أعتبر كتاب الرحلة الترجمانة الكبرى لصاحبها الزياني، مصدرا هاما في ادب الرحلات الذي أهتم به المغاربة، وأجادوا فيه أيما إجادة، وقد اتضح بجلاء من خلال ما تقدم ذكره مدى الحاجة إلى اقراءة تاريخية منهجية من خلالها استنتاج واقع الحضارات التي مربها صاحب الرحلة ، لأن الرحلة تكتسي طابعا علميا فنيا، على عادة الرحالين في كتابة نصوصهم الرحلية.

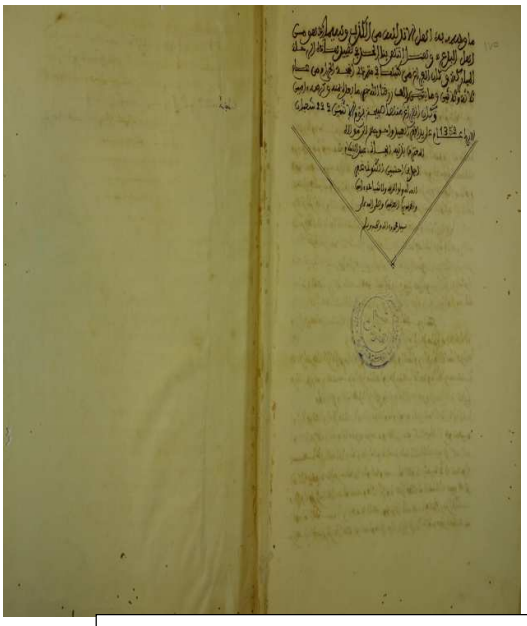

مخطوط: الترجمانة الكبرى التي جمعت أخبار العالم برا وبحرا –او بلقاسم الزياني

6. قائمة المراجع:

1.الزياني: ابو القاسم الزياني : الترجمانة الكبرى في أخبار المعمورة برا و بحرا، تح، عبدالكريم الفيلالي، دار نشر المعرفة، المغرب، الرباط 1991،، ص 44.

2 . ابو القاسم الزياني:تحفة الحادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب، تح، رشيد الزاوية منشورات وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية،المطبعة الأمنية، الرباط، 2008م ص 19.

333 . ابو القاسم الزياني:البستان الظريف في دولة أولاد مولاي الشريف، تح رشيد الزاوية، مركز الدراسات و البحوث الريصاني ، وزارة الشؤون الثقافية، المملكة المغربية ،1991م،ص 193.

4 . ابو القاسم الزياني:تحفة الحادي المطرب، المصدر السابق، ص20.

5 . ابو القاسم الزياني:تحفة الحادي، المصدر السابق، ص 20.

6. نفسه، ص 21

7 . نفسه، ص 22 أنظر أيضا:محمد الأخضر:الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية،ط1 دار الرشاد ،البيضاء المغرب 1977م، ص 399.

8 . ابو القاسم الزياني:تحفة الحادي، المصدر السابق، ص 20.

9 .عبدالله الكنون: ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم و الأدب و السياسة ، تق، محمد بن عزوز، ج1،ط1، دار بن حزم بيروت ،لبنان، 2010م، ص 624.

10. محمد الاخضر:المرجع السابق، ص399

11 . عبدالوهاب بن منصور:أعلام المغرب العربي،ج2، المطبعة الملكية ،الرباط،1979م،ص158.

12. ابو القاسم الزياني:تحفة الحادي، المصدر السابق، ص 23.

13 . نفسه، ص 160.

14 - ابو القاسم الزياني: الترجمانة، المصدر السابق، ص 35.

15 . محمد الاخضر:المرجع السابق، ص . ص 401 . 404.

16. محمد الاخضر:المرجع السابق، ص 405.

17ابو القاسم الزياني: الترجمانة، المصدر السابق، ص 35.

18. جمال حيمر: أبو القاسم الزياني عنصر بيوغرافية وبيبلوغرافية، ندوة تاريخية بكلية الآداب مكناس سلسلة أعلام الفكر المغربي، 2008م، ص 5.

19. ليفي بروقنصال:مؤرخو الشرفاء، تح:عبدالقادر الخلادي، مطبوعات دار المغرب للتأليف و الترجمة و النشر، سلسلة التاريخ5، الرباط 1977،ص 113. أنظر أيضا: محمد الاخضر:المرجع السابق، ص:408. وايضا:محمد بم جعفر بن إدريس الكتاني: سلوة الانفاس و محادثة الأكياس بمن اقبر من العلماء و الصلحاء بفاس العدد4، ج1،تح الشريف محمد حزة،الموسوعة الكتانية لتاريخ فاس،المغرب،د.ت، ص 263.

20 . ليفي بروقنصال:المصدر السابق، ص124.

21 . عبد الهادي التازي: رحلة الرحلات، مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة، ج1، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، فرع موسوعة مكة المكرمة والدينةالمنورة، 2005م، ص472

.22الزياني: المصدر السابق، ص 127.

23. المصدر نفسه، ص216.

24 . ليفي بروقنصال:المصدر السابق، ص124.

25 . ليفي بروفنصال:المصدر السابق، ص 125.